أكرموه فوضعوه مع البهائم....

عباس عبد المحسن إبراهيم النحال

عباس عبد المحسن إبراهيم النحال كلاف البهائم بمحطة تربية المواشى بدوار المصلحة التابع لوزارة الزراعة يقول تاريخه إنه حصل على هذه الوظيفة منذ أن كان شابًّا فى العشرين من عمره. وكانت هذه الوظيفة هى هدية المفتش الإنجليزى لوالده «الريّس» عبد المحسن بمناسبة عرس ولده الوحيد عباس سالف الذكر.

فالمفتش الإنجليزى شاهد رجله الأثير عبد المحسن النحال منهمكًا فى إعداد طوق كبير من الزهور، وعرف أن «مهسن» كما يناديه يجهز الليلة لزفاف ولده عباس، ولأنه كان قد رأى هذا العريس المنتظر منذ شهور قليلة فقد تعجب أن يقوم والده بتزويجه وهو فى هذه السن الصغيرة، وقد أنهى تعجبه بطلب قال فيه لرجله عبد المحسن حدائقى قصره الكائن بحدائق التفتيش الخلابة أن يمكنه من رؤية العريس بعد شهر العسل.. ثم نفحه مالًا وطعامًا وإجازة.

ولما جاءه بعد شهر العسل راح المفتش يتأمله بإشفاق وابتسامة مريرة ومنحه جنيهًا وهو يغمغم:

ـ «لم تعجلتم فى تزويجه؟.. إنه صغير.. صغير جدًّا»

ثم تحدث مع مترجمه بقول نقله المترجم للريس عبد المحسن:

ـ «خذه معك للعمل معكم فى الحدائق.. هذه الوظيفة هى هديتى لكما»

وراح الريس عبد المحسن يتخبط فى الكلام، وقد فهم المترجم أن الرجل يتمنى لو كانت هذه الوظيفة فى مكان قريب من مسكنه حتى يرحم «عباس» من السير ستة

كيلومترات فى اليوم من وإلى التفتيش..

سأله المترجم: «وأين هو مكان العمل القريب من مسكنك؟»

فأجابه الريس عبد المحسن مسرعًا: «محطة التربية، قريبة من منزلنا فى البلد..»

ـ «تربية المواشى؟»

ـ «أجل»

ابتسم المترجم فى إشفاق:

«تختار لولدك «الجلة» بديلًا عن الزهور.. هل هذا معقول. يا حاج؟»

* * *

ولا ينسى عباس النحال يومه الأول فى وظيفته المهداة، فقد فغر فاه دهشة لكل هذا العدد من الأبقار والجواميس التى تعج بها إسطبلات المحطة، فتقدم من أحد العمال وسأله:

ـ «كل هذه بهائم؟.. كم عددها؟»

تفحصه الرجل الذى لم يكن من أبناء البلد ثم سأله:

«هل أنت عباس بن الحاج عبد المحسن النحال؟..»

ـ «نعم»

فابتسم بسخرية، وقال له:

«خمسمائة.. وبعد وصولك اليوم صار عددها خمسمائة وواحدًا..»

أصابه حزن مفاجئ لهذه الإهانة، ثم عرف سر ذلك عندما قال له العامل القرفان:

ـ «فما دمت وافقت أن تعمل هنا كلافًا.. بدلًا من «جناينى» فأنت ولا مؤاخذة.. جاموسة..»

لم يلتفت عباس النحال إلى قيمة ما قاله العامل القرفان إلا عندما اتسعت مملكته البائسة بذرية كثيرة العدد، وضاق رزقه وعزّ عليه الطعام والشراب، ولم يعد يضمنها شأن البهائم التى يطعمها ويسقيها بيديه طيلة النهار.. أما بيته الذى ورثه من أبيه وكان

يمرح فيه بحرية وهو صغير.. فقد اختنق بمن فيه، وخنق كل من فيه.

وعرف عباس إلى أىّ حد كانت هدية المفتش الإنجليزى له تحمل شكلًا بريق المنحة، لكنها تحمل جوهرًا ظلمة المحنة.. فعندما قامت ثورة جمال عبد الناصر بتوزيع الأراضى على الأجراء والفلاحين لم يدرجوا اسمه فى كشوف من سينالون هذا الحظ المفاجئ.. وعرف أن السبب هو أنه مدرج فى كشوف العمال، ولا يمكنه ـ حسب القانون ـ أن يجمع بين أرض يتملكها، ووظيفة يملكها.

يومها تحسر وهو ينظر إلى «فرحانة» المولود العاشر الذى أتى به إلى الدنيا عام ١٩٥٣ فى مسلسل ذريته البائسة.. كانت فى لفتها سادرة فى غياهب الصمت والجهالة خالية من أية فرحة.. تمامًا مثل «فايزة» المولود رقم تسعة وسابقتها «سعيدة».. ثم كبراهن «رابحة» فهن بناته اللاتى منحهن تسمية لا يدرى سرّ اختياره لبهجتها.. فالفرْح والسعادة والفوز ثم الربح لم تزد عن كونها كلمات لا علاقة لها بواقعه الحقيقى، وأصبح القول بأن البنات رزقهم واسع قول قد يكون مر على غيره من الناس. ولكنه أبدًا لم يمر عليه..

وظل أولاده يتقدمون فى العمر وتتقدم معهم كفاءتهم فى مجابهة الفقر.. فبدأ الكبير يتعلم كيف يطلق ساقيه للريح معلنًا عن خفته ورشاقته وهو يلوذ بالهرب من أيدى الخفراء وحراس محصول القمح أو الذرة فى أجران دوار المصلحة بعد أن يكون قد فاز بشيكارة مملوءة بالقمح أو بأكواز الذرة. وأصبح القفز على أسوار جرن المصلحة مهمة عائلية تليق بمن لا تنقصه وسيلة إتقان الفرار من أبناء عباس النحال.

ولما غاب عنه الرزق بأكثر مما تعود عليه قال لزوجته أم الخير الدسوقى:

ـ «سأذهب بنفسى إلى جرن المصلحة لسرقة القمح..»

فقالت له:

«أنت ضعيف وغلبان ولن تقوى على الفرار إذا ضبطوك»

فغمغم بشىء من الخوف: «ربنا يستر»

يومها نجح فى تحويل شيكارتين إلى بيته، وعندما ألقى بالشيكارة الثالثة إلى خارج السور العالى سقطت قرب ناظر الزراعة الذى كان يتفقد الجرن فى هذا الوقت من القيظ.

وقف الناظر أحمد غنيم فى انتظار اللص الذى سيلحق بسرقته الآن.. ولما أنهى عباس النحال قفزته الرشيقة مقعيًا على راحتيه وركبتيه كقرد يلهو ناداه أحمد غنيم: «**أنت يا عباس؟**»

ـ «**نعم ... أنا يا حضرة الناظر...**»

ـ «**موظف فى المصلحة.. وتسرق المصلحة؟....**»

ـ «**البيت فاضى.. والعيال جياع .. ماذا أفعل؟**»

ـ «**أتطعمهم من حرام يا عباس؟**»

ـ «**نعم أطعمهم من حرام.. لأنه لا يوجد طعام آخر**»

ـ «**وتقولها فى وجهى؟.. ألا تخجل من نفسك؟**»

ـ «اخجلوا أنتم من أنفسكم، فأنت والباشكاتب والمعاون تلقون بالطعام الفائض منكم فى الزبالة أو للخرفان والدواجن ونحن جياع، فمن منا يعوزه الخجل؟...»

وقال الناظر ذو الوجه الخواجاتى الملىء بالقطن والشاش والكدمات وهو يثرثر مع المحققين حوله فى المستشفى بعيدًا عن أوراق المحضر:

ـ «**والله.. أنا كنت سأتركه وأعفو عنه رغم لسانه الطويل، فأنا أعرف ظروفه الصعبة..**»

وراح أحمد غنيم يوضح للمحققين أن غريمه عباس النحال بدلًا من أن يستعطفه تمادى فى تحديه فعندما سأله قائلًا: «**مالك أنت يا عباس ومال طعامنا.. هل ستحاسب الله على رزقه للناس؟**»

إلا أن عباس الفصيح رد على سؤاله بسؤال آخر:ـ «**وهل تسمى هذا رزقًا يا بك؟..**»

ـ «**إذن، فماذا تسميه أنت؟**»

ـ «**سرقة.. سرقة يا سعادة الناظر.. خير المصلحة يتحول إلى منازلكم ومنازل أحبابكم ونحن نتفرج عليكم..**»

اغتاظ الناظر من هذه الوقاحة، فصفع عباس النحال على وجهه ثم ركله ببوز الحذاء

دون قصد أن تجيء ركلته فى خصيتى المسكين، فصرخ بأعلى صوته قبل أن يرتمى على الأرض:

ـ «آى... آى... آآآ أى الحقونى..»

وعلا صوت الاستغاثة ركض سكان البيوت القريبة من جرن المصلحة.. وفى ظل السور وجدوا عباس يتمرغ من شدة الألم.. وبالقرب منه يقف الناظر أحمد غنيم لا يعرف كيف يتصرف، ولما همدت أنفاس عباس وتمدد كهيئة الميت ظنه الناس قد مات فانهالوا على الناظر ذى الهيبة العالية ـ التى كانت ترتجف لها أبدانهم ـ وأوسعوه ضربًا بكل ما امتدت إليه أيديهم ليسجل أهل البلد أول ثورة من نوعها فى المنطقة.. ثورة كان بطلها والمحرض عليها المدعو عباس عبد المحسن إبراهيم النحال عامل الكلافة بمحطة تربية المواشى التابعة لوزارة الزراعة.. والمتزوج من أرنبة بشرية اسمها أم الخير إبراهيم الدسوقى التى أنجبت له عشرة أولاد من صنف الغيلان كما وصفهم ولد منهم منحه الله موهبة الشعر وأشياء أخرى ولد اسمه السيد.. السيد عباس النحال.